حول كتاب :

معروف الرصافي

— ١ —

بقلم الاستاذ هادي محيي الخاقاني

تأبى مصر الشقيقة ؛ زعيمة هذه النهضة الفكرية المباركة في الشرق العربي إلا أن تكون السباقة إلى كل فخر وفضل ، ويأبى أبناؤها الأبرار الأحرار إلا أن يكونوا السباقين أيضاً الى تحقيق هذا الفخر والفضل لها سواء أكانوا في مصر أم في غيرها من بلاد العربية . فها هو ذا الاستاذ بدوي طبانة المدرس المنتدب لتدريس اللغة العربية وآدابها في دار المعلمين العالية ببغداد يبادر إلى تأليف كتابه القيم (معروف الرصافي) ولما يمر على وجوده في العراق إلا عام أو عامان — لا أدري — فيكون أول بادرة من بوادر التقدير لهذا الشاعر — شاعر العراق بل شاعر العرب الحر الذي عاش ومات محروماً راحة العيش وراحة الموت معاً في بلاده ووطنه . ونحن في الوقت الذي نغبط الاستاذ على هذا التوفيق ونشكر له هذا الصنيع الجميل واليد البيضاء نأسف كل الأسف لتجاهل أدباء هذا البلد ومفكريه شاعراً غير مجهول كالرصافي وهب نفسه وفكره وقلبه ولسانه لهذا الوطن وجاهد في سبيله ذلك الجهاد المضني المتواصل ، ثم لا يذكر بكلمة رغم أنه مضى على وفاته اكثر من سنتين .

قرأت الكتاب فاذا هو صورة حية ناطقة للرصافي في حياته وما امتلأت به من آمال وآلام ؛ ونزعات ونزوات وخواطر وأخطار . فقد استطاع الاستاذ المؤلف أن ينفذ إلى أسرار الرصافي وأفكاره وآلامه وآماله فيكشف لنا عنها كشف الخبير اللبيب حتى لكأنه كان رفيقه في صباه وصديقه في شبابه ومستودع أسراره في كهولته وشيخوخته وشريكه في بؤسه ونعيمه وثورته وهدوئه إلى غير هذا وذاك مما أحاط بالرصافي في حياته وتابعه حتى بعد موته . كل هذا استطاع أن يكشف لنا عنه الاستاذ طبانة ويصوره لنا بأسلوبه الشائق الرائق تصوير فنان بارع وهو لما يقدر له غير قراءة الديوان وآثار الرصافي المنشورة وغير المنشورة ، فما ذا كان يقول الاستاذ عنه لو قدر له أن يجتمع — كما تمنى — بالشاعر الراحل فيتحدث إليه ليتحدث عنه من بعده بما يخال انه لم يستطع استنباطه واستكشافه من آثاره .

ولكن ليطمئن حضرته فما نظن أن كتاباً آخر سيكتب عن هذا الرجل فيلم بما ألم به كتابه لا لأنه معجزة من المعجزات بل لأن علمنا وأدبنا نحن العراقيين ما زالا رهن الصدور من جهة ومن جهة أخرى رهناً بما توحي الينا مصالحنا وأهواؤنا الشخصية إن كان ثم لدينا أدب وعلم منتج يمكن أن يخرج من هاتيك الصدور .

والآن أود أن ابدأ فاسجل فيما يلي ملاحظاتي وهي ثلاث: ملاحظات على الكتاب وأخرى على تعليقات معالي الشبيبي على الكتاب وثالثة — وأبدأ بها أول ما أبدأ — ملاحظات على المقدمة وهي بقلم معالي الشيخ الشبيبي أيضاً . أما ما كتبه سعادة الاستاذ هاشم عطية عن هذا الكتاب القيم فاني متفق وإياه على ما جاء فيه من آراء قيمة وأفكار سديدة .

قال : معاليه (ص ٧) في معرض كلامه عن الرصافي وتأثره بآراء شباب الترك الفلاة الثائرين على الطغاة من سلاطين آل عثمان : « نحن لا ننكر أن الثوار كانوا على حق في كثير من بواعث الثورة وأسبابها ومنها ذلك الجمود السياسي . .. ومنها تفريط السلاطين والحكام بحقوق الشعوب المحكومة ... ولكننا ننكر أشد الانكار غلو الغلاة وإفراط المفرطين والخروج عن الصدد في تقويض أسس الحياة الاجتماعية الراسخة في البلاد ثم قال : « لابد للامم في مهب الاعاصير من التماسك أو التمسك بأمراس النجاة وما هي إلا المحافظة على دساتيرها في الدين والأخلاق والعادات الحميدة » ولكن معاليه لم يوضح لنا أسس تلك الحياة الاجتماعية الراسخة في البلاد ولا تلك الدساتير في الدين والاخلاق والعادات الحميدة . كان ينبغي لمعاليه أن يحدد المقصود منها ليدل على غرضه بصورة أوضح . فان أمثال هذه الكلمات لا تختلف في مدلولها ومفهومها عند الأفراد فحسب وإنما

هي تختلف عند الشعوب أيضاً . فما يراه هذا الفرد أو هذا الشعب أساساً من اسس حياته ودستوراً من دساتير دينه واخلاقه وعادته قد يراه الفرد الآخر او الشعب الآخر لا شيء بل اقل من لاشيء في حياته والعكس بالعكس. وهذا ما وقع فعلا للرصافي وخصومه رأى هو اشياء لا تستقيم الحياة بدونِ العمل بها فلم يستسيغوها وتمسكوا هم بأشياء رأي الرصافي الخير كل الخير في زوالها. ومن هذا كان ما كان بينه وبين اولئك الخصوم مما يعرفه علامتنا اكثر مني ومن غيري .

وقال معالي الشيخ (ص ٧) ايضاً : (وجاهر بما جاهر به من شك وارتياب في بعض الاصول الاعتقادية التي لا مجال للشك فيها عند جمهور المسلمين) ولا نعرف ما هي تلك الاصول الاعتقادية التي شك فيها الرصافي ؟ هل شك في ذات الله تعالى ورسوله وهذه وصيته [١] وهي آخر ما كتبه بخطه تشهد له بأنه مات مؤمناً بالله عز وجل ونبيه محمد [ص] وهذه اقواله في وحدة الوجود وقصائده تشهد له بما تشهد وصيته ايضاً .

أوليس هو القائل :

« ودين أوضحت للناس قبلا . نواصع آيه سبل الرشاد »

وفي قوله « قبلا » معنى لا يخفى على معالي الشبيبي ولا على الادباء الالباء .

او ليس هو القائل :

« لئن ملأوا الأرض الفضاء جرائماً
فهم اجرموا والدين ليس بمجرم »

والقائل مخاطباً الارملة :

« هل تسمح الاخت لي أني اشاطرها
ما في يدي الآن استرضي به الله »

إلى غير هذه وتلك من الأبيات الصريحة الدلالة على رسوخ عقيدته وايمانه بالله وصحبته

وهل شك في البعث ؟ وهو لم يشك في الصورة التي يبعث عليها الانسان ـ هذه الصورة التي ما زالت موضع خلاف بين علماء الدين انفسهم فضلا عن الفلاسفة والمتكلمين منذ زمن طويل ويكفينا أن نرجع الى ما كتبه في هذا الصدد في كتابه « رسائل التعليقات » وما اقتطفه منها الاستاذ المؤلف وأثبته في كتابه (ص٥٩) . ثم من هو ذلك (الجمهور من المسلمين) الذي ذكره شيخنا العلامة ؟ أهو هذه الشعوب الجاهلة الفقيرة المريضة سواء أكانت عربية ام اعجمية ؟ إن كان هذه فما نظن ان شعوباً هذه حالتها يمكن أن تعد يوماً ما حجة على عالم أو أديب تخطئه او تصوبه ، وتحشره في زمرة الملحدين الكافرين او ترفعه الى منزلة المؤمنين القديسين . وان كان جمهور العلماء من المسلمين فما نخال الجمود العقلي والفكري هذا من جهة ومن جهة أخرى الأهواء والمصالح تركت اكثر هؤلاء إن لم نقل كلهم يرون الحق او يبصرون الهدى . ومعالي الشبيبي يعرف ما نعني ومن نعني بهذا الكلام ـ حتى آل بنا الامر الى هذا التفسخ الخلقي والاجتماعي والتدهور الفكري الذي نلمسه في مجتمعاتنا . ومع لا شك بعد ذلك « معروفون باصالة الرأي والاتزان كأولئك الأدباء الذين احفظهم الزهاوي والرصافي » كما يقول العلامة.

وقال شيخنا الشبيبي (ص ٨) : وشعره طافح بالعبث والمجون ، فاما سما به عن مستوى الحياة المادية ، ولا بدع فهو من الادباء الذين يجنحون بأدبهم الى الواقع ويخاطبون العقول ولا شأن لهم بمخاطبة القلوب ولا بمناجاة المثل العليا » لقد كان الشيخ الجليل خليقاً بأن لا يجور على الرصافي واضرابه ولا على ادبهم المادي الواقعي هذا الجور ، فان « المادية » التي اخذيتجه إليها الادب منذ زمن اتجاهاً واضحاً بيناً ليست هي بمادية البطون كما فهمها الاستاذ المقاد من قبل ولا بماديه « الفروج » كما يريد ان يصفها معالي العلامة وهو يعلم حق العلم انها ليست كذلك . اذن فما الذي اوحى الى معاليه ان يرد اسباب العبث والمجون في الرصافي وامثاله الى هذه المادية او الى ذلك الواقع الذي جنح اليه ادبهم مع ان العبث والمجون ليس صفة لازمة لاصقة بالماديين او الواقعيين ولا ميزة من ميزاتهم وانما هو صفة شائعة فاشية في كل زمان ومكان وما اخبار المجان العابثين بالقليلة النادرة . فهل كان والبة وابو نؤاس وابن سكرة وابن الحجاج والبحتري واضرابهم ماديين بالمعنى الفلسفي الحديث لهذه الكلمة هذا المعنى الذي اراده معاليه للرصافي وامثاله من شعراء الواقع في العصر الحديث ؟ وان كانوا كذلك ـ ولن يكونوا ـ فهل كانوا يأتون ما يأتون عن علم وفهم لهذه الفلسفة ؟ احسب انه ليس في استطاعة احد لا العلامة الشبيبي ولا غيره ان يقول

(١) ص ٦٤ من الكتاب

انهم ماديون بهذا المعنى الذي نفهمه لهذه الكلمة ولا انهم كانوا يأتون عن علم وفهم لهذه الفلسفة .

وقال معالي الشيخ « ص ١٠ » (وكانت دعوته الى الاعتبار بالحقائق الواقعية في هذا الكون فقط والعناية بالمظاهر المادية وحدها في هذه الحياة . وهنا تكون مداحض الاقدام وشطط العقول وفتنة الافكار . ومن هذه الناحية كانت له تلك الشطحات فهو ممن خلط الحسنات بغيرها في أدبه كما تقدم القول في ذلك) ونحن لا نرى أي اختلاف أو تباين بين ما نشد المرحوم الرصافي وبين ما ننشد نحن من مثل عليا فهو لم ينكر للدين ولا لأصوله وكل ما هنالك أنه « خالف المسلمين فيما رآهم عليه من أمور يرونها من الدين وليست هي الا بمنزلة القشور من اللباب ولم يهمه من الدين الا جوهره الخالص وغايته المطلوبة التي هي الوصول الى شيء من السعادة في الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الأخروية »(١) فأين هي تلك الشطحات التي أشار اليها معالي الشبيبي واين هي تلك السيئات التي خلطها بحسناته ؟

وعاب الشيخ العلامة في « ص ١٠ » على الشباب انه « شباب حائل الالوان متباين المشارب لا هو شرقي يدرك ميزة الحضارة الشرقية ويتذوق روحانية الشرق ... ولا هو شباب غربي في جرأته ومغامراته او في نشأته الاستقلالية ... » فهل فات شيخنا الشبيبي انه ليس الشباب فقط حائل الالوان متباين المشارب لا هو شرقي ولا هو غربي وانما الشيوخ هم ايضاً حائلو الألوان متباينو المشارب لا هم شرقيون ولا هم غربيون . وليس في هذا ولاذاك غرابة إذ انه نتيجة طبيعية منتظرة لكل امة فتية ناهضة اي انه لم يكن بد من هذا التباين في المشارب والاختلاف في الالوان . ولم يكن بد من هذا الانقسام انقسام الامة الى فئتين بل ثلاث حيال هذا العهد الجديد وما جد فيه من افكار وآراء : فئة تقبل على الجديد وما فيه بنفوسها وعقولها وقلوبها والسنتها وفئة تتعلق بالقديم وما فيه فهي لا تلتفت الى الجديد لانه في نظرتها اليه شيء كبير من الفزع والهول ولا تكل من النظر الى وراء لأن في نظرتها الى القديم بعض الراحة والاطمئنان ؛ وفئة ثالثة تقدم رجلا وتؤخر اخرى فهي امة وسط فيها من كل لون لون.

النجف — يتبع — هادي محي الخفاجي

(١) وصية الرصافي ص ٦٤ من الكتاب .

طفلتي الجميلة

للاستاذ صاحب التوقيع

أترى اي باقة من ورود كللت مفرق الهنا والسعود
وسرت بالندي نفحة قدس عطرته بنشر مسك وعود
وتبدت كالظبي تمرح في القاع فتاة الحمى بسير وئيد
طفلة تخجل الغصون اذا ما ست دلالا بقدها الاملود
وصلت بعد هجرها والد الوصل ما جاء بعد طول صدود
حسبها الورى ملاكاً من القدس تجلى في شكل عذراء خود
او مليكاً متوجاً ذا جمال قد تبدى من حسنه في جنود

* * *

ايه ريحانة الفؤاد اعيدي نغمة الحب للفؤاد اعيدي
ابسمي للحياة فالدهر غض لك والكون باحتفال وعيد
ابسمي فالصباح يبسم والطير تهز القلوب بالتغريد
حيث فعل الايام غير قبيح والليالي من حسنها غير سود
حيثما في الوجود الاجميل يتجلى به جمال الوجود
حيث كل الحياة شعر رقيق في المعاني وانت بيت القصيد
هتف الطير في الصباح يحييك فردّي تحية المعبود
ونجوم السماء ترنو وودت لو يحليك بعضها بعقود
نظرة منك تنعش الامل العذب وتمحي ماضي الغرام البعيد

* * *

ايها الأم عوذي الطفلة الحسناء باسم المهيمن المعبود
واحذري البدران يراها فقد اصبح يرنو لها بعين حسود
واحفظيها من النسيم فقد يؤلم منها رقاق تلك الخدود
حلليها من قيدها فكفاها ما تلاقي في دهرها من قيود
وضعي فوق مهدها شفف القلب ستاراً عن الحرير الجديد

* * *

النجف — م . ن